المكـــان الأرضـــي
شعر الشريف الرضي / نموذجاً

الأستاذ مساعد الدكتور
حافظ كوزي المنصوري
جامعة الكوفة ـ كلية الآداب

المكان الأرضي شعر الشريف الرضي / نموذجاً

الأستاذ مساعد الدكتور
حافظ كوزي المنصوري
جامعة الكوفة / كلية الآداب

المقدمة:

ظل الشعر العربي القديم غفلا من الدراسات الحديثة إلا من دراسات محدودة على الرغم من أنه يحتوي في نماذجه الشعرية الرائعة كثيراً من الأفكار والمعاني والرؤى البعيدة والرموز الدالة وغير ذلك مما ينبئ عن حس شاعري مرهف لدى شعرائه فمن المفيد أن ندرس شعرنا في ضوء الدراسات الحديثة دراسة لا تلغي هويته بل تؤكد تلك الهوية ولذا كانت الرغبة ملحة في دراسة ظاهرة المكان في شعر الشريف الرضي.

تناولت في هذا البحث تمهيداً عن المكان والدراسات التي تناولته، وبعد ذلك تناولتُ دراسة طبيعة المكان وأنواعه عند الشريف، ثم تناولت دراسة المكان الطللي ودلالته، ثم عرجتُ على المكان المعادي والمكان الأليف ودلالتهما ودرست كذلك دلالات أخر للمكان منها الدلالة العاطفية والدينية ودلالة طيف الخيال، وأوجزت بعد ذلك أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

التمهيد:

المكان أزلي قديم منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها فهو تجسيد الوجود المادي والحيز الذي تتحرك فيه الكائنات على اختلاف أنواعها فمنذ أن خُلِق الإنسان وجد نفسه يتحرك في حيز من الأرض فإذا سكنت روحه التصق بالأرض ولذا فان ارتباط الكائنات ولاسيما الإنسان بالمكان هو ارتباط

وجودي بل ارتباطه بها يتجسد في حياته ثم في موته ومصداق ذلك الآية الكريمة ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[١] ولذا فهو ارتباط مشيمي كما وصفه بعض الدارسين فتعلق الإنسان بموطنه ومسكنه وأرضه يشبه الى حد بعيد تعلق الطفل بأمه فالمكان (الأرض) هو الأم الثانية للإنسان ولربما صار البكاء على الأطلال حنيناً للعودة للارتباط بالأم وهذا البكاء قد يكون تداعيات لمكونات هاجعة في اللاوعي الإنساني وهذا ما يستدعي دراسة الشعر العربي القديم في ضوء هذه المعطيات دراسة لا تلغي هويته بل تؤكد تلك الهوية وتشير الى حجم الإبداع الشعري عند شعرائنا القدماء[٢].

لقد جسد الشعراء – وهم أكثر النماذج البشرية حساً – في سلوكهم الذاتي ابرز صور الارتباط بالأرض وكان الشعر وسيلتهم للتعبير عن هذا الارتباط وليس خفياً على المتتبع فقد وجدنا ذلك في أقدم صور الشعر منذ زمن امرئ القيس وهو يذكرنا بـ (سقط اللوى، والدخول، وحومل، وتوضيح، والمقرأة) لا بل كان ذلك أقدم من امرئ القيس إذ وجدناه عند ابن حذام الذي سبق امرأ القيس والذي بكى الديار كما يذكر ذلك الشعراء بعده.

عوجـا علـى الطلـل المحيـل لعلنـا نبكـي الـديار كمـا بكـى ابـن حـذام

لقد أفاضت الدراسات الأدبية والنقدية في الحديث عن ظاهرة المكان ومنها (الأطلال) ولكنها ظلت تدور في أفق محدود ولم تتخط ذلك الأفق إلا دراسات محدودة حاولت أن تسبر غور الأبعاد النفسية والدلالية التي تعنيها ظاهرة الاطلال التي هي جزء من الأرض.

إن الولوج في دراسات المكان ودلالته في الشعر العربي أمر حديث فهو لا يتخطى الزمن الذي ترجم فيه الأستاذ (غالب هلسا) كتاب (جماليات المكان) لمؤلفه الفرنسي (غاستون باشلار) وذلك عام ١٩٨٠ ولكن المتتبع لتلك

الدراسات التي تناولت دلالة المكان يجدها تدور في الأغلب في فلك القصة والرواية والشعر الحديث[٣] ولم يكن لشعرنا العربي القديم نصيب من تلك الدراسات إلا دراسات قليلة نذكر منها دراستين للباحث الدكتور حيدر لازم الموسومتين بـ (المكان في الشعر العربي قبل الإسلام) و (المكان والزمان في شعر المتنبي) ودراسات أخرى علماً بأن الفلاسفة المسلمين قد درسوا المكان دراسة من وجهة النظر الفلسفية.

لقد توافر كثير من الشعراء على ذكر الأماكن في شعرهم سواء منهم الجاهليون أم الإسلاميون ابتداءً من ابن حذام ومروراً بامرئ القيس والبحتري وابن الرومي والمتنبي والشريف الرضي موضوع البحث الذي جاء ذكر الأماكن في شعره هذا مدعاة لدراسة هذه الظاهرة في شعره لعلها تكون منفذا لآخرين ليلجوا هذا الميدان.

ولعل أقدم صور المكان التي تناقلها الدراسون في دراساتهم عن الشعر العربي القديم هي صورة الأطلال وهي أماكن واقعية بلا شك تحتل حيزاً في الأرض ولما كانت هذه الأطلال آثاراً لديار فهي ترتبط بساكني هذه الديار ومن ثم ارتباط الشاعر بهؤلاء ولذا فهي نموذج يحمل في معناه حساً إنسانياً عميقاً وصورة من صور الارتباط بالأرض ودلالات أخرى سيشير لها المبحث.

وإذا كان ابن قتيبة (٢٧٦هـ) قد تناول هذه الظاهرة ضمنا وهو الرائد الأول في هذا المجال من بين النقاد العرب في قوله: ((.. وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ بذكر الديار والآثار فبكا وشكا وخاطب الربع... ليجعل ذلك سببا لأهلها الظاعنين... ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد..ليميل نحوه القلوب ويصرف اليه الوجوه... فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه عقب بايجاب الحقوق...))[٤] ولكنه قد اقتصر في

دراسته على جانب محدود وقد أخفق في تحليل هذه الظاهرة (الأطلال) عندما قصرها على المدح إذ لا يعقل إن الشاعر يبكي تلك الأوطان من أجل أن يستوجب الحقوق على ممدوحيه.. وإذا صح هذا في مجال المدح فما أسباب ذلك في الفنون الأخرى كالغزل والرثاء وغيرها.

وإذا كان هذا التعليل يصح بالنسبة الى الشاعر الجاهلي على أساس أن طبيعة الحياة البدوية ترشح ذلك للقبول فما بال الشاعر الإسلامي والشاعر العباسي الذي عاش في المدينة ولم يألف حياة الصحراء؟ وإذا كانت المسألة تتعلق بالمديح والحقوق فلماذا لم يلتفت الشعراء الى دعوة أبي نواس وغيره ممن دعوا الى ترك الأطلال والابتداء بالخمرة والغزل ؟ إذ لم يفت في عضدهم تلك الدعوات بل راحوا يؤكدون هذا المنهج واستمروا سادرين فيه والى عصرنا الحاضر.

إذن المسألة أكبر من ذلك وهي مرتبطة بحياة الإنسان ونظرته الى الكون والحياة وتقلباتها وتغييراتها تلك التحولات التي تحدد مصير الإنسان ومستقبله بذلك تكون داعية للقول والتأمل لقد جاء ذكر الأطلال في شعر الشريف الرضي كما جاء ذكر أماكن أخرى غير المكان الطللي تحمل دلالات أخرى كما سيتضح ذلك في أثناء البحث.

المكان في شعر الشريف الرضي:

إن استعراض خارطة الأماكن التي ذكرها الشريف الرضي في شعره تنبئ عن طبيعة تلك الأماكن فهي اما أماكن طللية وهي آثار لديار قديمة قد عفا عليها الزمن بفعل عوامل الطبيعة وقد يكون الشريف قد مر بها فأثارت شجنه فخاطبها واما ان تكون مواضع حجازية وأوطان في الطريق الى الحجاز قد مر بها الشريف في رحلاته الى مكة في موسم الحج حين كان يقود تلك الحملات بنفسه فتركت سيلا من الذكريات والأماني والملاحظات لديه.

وهذه الأماكن تشكل خريطة تفصيلية للمنطقة العربية التي يحدها العراق شرقاً وفلسطين والأردن شمالاً واليمن جنوباً.....

ولقد أحصى الدكتور مصطفى كامل الشيبي ﷺ أكثر من مئة موضع جاء ذكرها في حجازياته[٥] وهذه الأماكن متنوعة فهي مدن وجبال ووديان ومحطات وأودية... الى غير ذلك[٦] وجميع هذه الأماكن لها آثار ودلالات في شعره إذا ما علمنا أن المكان جزء تكويني مهم يتشكل في ذاكرة الأديب والشاعر خاصة فنتاج المشاهدات اليومية تتجمع في ذاكرة الشاعر وتبرز في عمله الشعري واقعاً متولداً عن الواقع الأول[٧] والأماكن التي ذكرها الشريف في شعره سواء ما كان منها في العراق أم في الجزيرة العربية ارتبطت بحس الشريف الرضي أيما ارتباط فهي مواطن الآباء والأجداد وهي مواطن المحبة والانتماء.

أنواع المكان:

١- المكان الطللي ودلالته:

تبقى الأطلال ومشاهد الديار الدارسة مشاهد تؤرق الإنسان وتثير الرعب في نفسه وهذه المشاهد الشاخصة تذكر الإنسان بالأفول والموت وتدعوه الى القلق والتخاذل أمام هذا المشهد الرهيب حتى تصل الحال به الى البكاء ولاسيما الشعراء وهم أقدر الناس على التعبير عن مشاعرهم، بل أكثر الناس تأثراً بهذه المشاهد منذ أن عرفنا الشعر وعرفنا أقدم صوره وجدنا شاعره باكياً متأسياً بمن قبله في هذا البكاء يقول:

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن حذام

ويقول مقصّد القصيد:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وليس البكاء إلا على هذه الآثار الشاخصة التي عفا عليها الزمن وأهلها وأصحابها الظاعنين أو الراحلين إلى عالم آخر غير عالمنا الذي نعيشه.

فلم يكن ذكر الأطلال كما زعم بعض الدراسين تقليداً فنياً يقود الى ما بعده لا يخرج فيه المتأخر عن سنن المتقدم.. أو هو رمز لحبهم الداثر[٨] بل ان إشارة ابن قتيبة الذي يعد أول النقاد العرب القدماء الذي تناول هذه الظاهرة اللافتة للنظر في شعر الجاهليين والإسلاميين تنبئ عن حس مرهف حين ذكر إن مقصّد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن.. ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها[٩]... هذه الإشارة إلى أصحاب هذه الديار الظاعنين عنها هي في حقيقة الأمر إشارة الى الموت والفناء الذي أقلق الشاعر الجاهلي ولم يجد في وقته تفسيرا صحيحاً لهذه الظاهرة المرعبة كما انها تشير الى الارتباط الحميم بين الشاعر وأرضه.

ويؤكد المستشرق (فالتر براونه) هذه المسألة بقوله: إن موضوع المقدمة الطللية هو اختبار القضاء والفناء والتناهي... وإن قول الشاعر (دع ذا) دعوة الى الحياة والعمل بعد ان ادرك الشاعر ان وجوده محدود ومتناه[١٠] والى مثل هذا الرأي ذهب الدكتور عز الدين اسماعيل في حديثه عن الأطلال إذ ذكر إن الشاعر فيه يعبر عن موقفه من الحياة والكون من حوله[١١].

إن مما يؤكد البعد العميق لدلالة الظاهرة الطللية في نفس الشاعر العربي وجديتها هو ثبوت هذه الظاهرة وامتداداً في الشعر العربي حتى عصوره المتأخرة ولم يفت في عضده دعوة بعض الشعراء الى ترك هذه الظاهرة واستبدالها بغيرها انطلاقا من نظريتهم الساخرة من الحياة[١٢] فلقد ظلت هذه الظاهرة شاخصة لدى اغلب الشعراء ومنهم شاعرنا الشريف الرضي موضوع البحث.

فعلى الرغم من تقادم الزمن على هذا المنهج (منهج القصيدة الطللية) في

زمـن الشـريف الرضـي وهـو القـرن الرابـع للـهجرة إلا أننـا لا نـبرح نجـد أن الشريف الرضي وهو المولود في الحاضرة العباسية بغداد (٣٥٩هـ) والمتوفي فيها ولم يعش حياة البداوة كان يكثر من ذكر الأطلال والأماكن الداثرة كما يكثر من ذكر الاماكن الاخرى كالمدن والوديان والجبال والمنازل والشعاب إذ تشكل تلك الأماكن خارطة واسعة في شعره فمن ذلك قوله (من مجزوء الكامل)...[١٣] وقد زار الكوفة وقصد قبر أمير المؤمنين علي عليه السلام وعرج على الحيرة:

مازلـت أطـرق المنـازل بـالنوى ... حـتى نزلـت منـازل النعمـان

بـالحيرة البيضـاء حيـث تقابلـت ... شـم العمـاد عريضـة الأعطـان

مـا ينفـع الماضـين ان بقيـت لهـم ... خطـط معمـرة بعمـر فـان

ورأيـت عجمـاء الطلـول مـن البلـى ... عـن منطـق عربيـة التبيـان

بـاق بهـا حـظ العيـون وإنمـا ... لاحـظ فيهـا اليـوم لـلاذان

وعرفـت بـين بيـوت ال محـرق ... مـأوى القـرى ومواقـد الـنيران

ولقـد رأيـت بـدير هنـد[١٤] مـنزلا ... ألمـا مـن الضـراء والحـدثان

أمقاصـر الغـزلان غـيرك البلـى ... حـتى غـدوت مرابـع الغـزلان

ووقفـت اسـأل بعضـها عـن بعضـها ... وتجيـبني عـبرٌ بغـير لـسان

نعـق الزمـان بجمعهـم عـن لعلـع ... واقـض منزلـهم علـى نجـران

إن رؤيا الشاعر لتلك الطلول في تلك المنازل (منازل النعمان) وقد أفصحت (عربية) التبيان عن كل شيء عن البلى الذي ألمّ بها والخراب الذي شملها والصمت الذي خيم عليها بعد أن كانت في يوم ما مأوى القرى، ومواقد النيران، فصارت الآن مرابع للغزلان وقد كانت مقاصر للنساء الجميلات.

لقـد تـذكر الشـريف صـورة المنـازل في ماضـيها العتيـد في ظـل أمجـاد أهلـها وتـاريخهم المشـرق والآن يرسـم لنـا صـورة هـي صـورة (غيريـة) بعـد أن تقـادم الزمن وحل البلى والدمار بهذه المنازل.

لقد ذكر الشريف في نصه هذا مجموعة أماكن منها منازل (منـازل النعمـان) (ومنزل دير هند) ومنها مدن (كالحيرة) وبيوت (بيوت ال محرق).

لقـد رسـم الشـاعر صـورتين متغـايرتين لتلـك المنـازل والبيـوت وتلـك المـدن أحدهما صورة مشرقة وهي صورة الماضي بتلـك المنـازل والبيـوت إذ كانـت في وقت مضى مأوى الضيف (مواقد نيران) أما الصورة الثانيـة فهـي ان ذكـر هـذه المنازل الطللية يفصح عن تجسيد هـاجس الـزمن وفعاليته التدميريـة الـتي تعفـو وتمحو وتلغي[١٥] فالحديث عن هذه المنازل الـتي تحولـت الى (عجمـاء الطلـول) مـن البلـى إنمـا هـو حـديث عـن أهلـها الظـاعنين الـذين طـواهم الـزمن وفـرق جمعهم بل أحالهم الى العدم فهو حديث عن إنسـان هـذه المنـازل ومـا حـل بـه بسبب تقـادم الـزمن أو طولـه أو شـدته وجبروتـه وضـعف الإنسـان أمـام هـذه القـوة التدميريـة الفاعلـة بصـمت أحيانـاً وعلنـاً أحيانـاً أخـرى إن هـذه القـوى الفاعلة التي يعبر عنها في الخطاب الأدبي بالزمن أو الدهر أو الأيام أو الليـالي تمتلك أدوات تخريبية تعصف بالكائنات سواء الإنسان منها أم الحيوان والنبـات والأشياء وغيرها. فتحيلها إلى آثار وأطلال أحياناً وقد تمسخها أحياناً أخرى.

إن الحديث عـن الأطـلال الدراسـة والآثـار العافيـة إنمـا هـو في حقيقـة الأمـر إشارة الى عوامل الزمن الطبيعية التي تتضـافر دائمـاً لتعصـف بالمكـان ومـن بـه وقد أشار الشريف الرضي الى هذه القوة الفاعلة بقوله في القصيدة نفسها:

نعـق الزمـان بجمعهـم عـن لعلـع[١٦] وأقـض منزلهـم علـى نجـران

زفـر الزمـان علـيهم فتفرقـوا وجلـوا عـن الأوطـار والأوطـان

هذه صورة دقيقة يرسمها الشاعر للزمان وكيف يعصف بأهله إذ قال (نعق الزمان بجمعهم) وهو يذكرنا بالغراب الذي ينعق في الديار الخالية والعرب تتطير من الغراب ونعيقه فهو صورة من صور الشؤم ينذر بالفراق والهجران.

والشريف بعد حديثه عن تاريخهم المشرق وأيامهم الجميلات يوم كانت تلك المنازل مقاصر للنساء الجميلات ثم أصبحت مقاصر للغزلان البرية يرسم صورة رائعة لتلك المنازل التي احتفظت العيون فيها بحظها من الآثار والأطلال ولم يبق للآذان حظ فيها لأن الصمت قد خيم بها قال[١٧].

امقاصـــر الغـــزلان غـــيرك البلـــى حـــتى غـــدوت مـــرابض الغـــزلان

مـــن كـــل دار تســـتظل رواقهـــا ادمـــاء غانيـــة عـــن الجـــيران

بـــاق بهـــا حـــظ العيـــون وإنمـــا لا حـــظ فيهـــا الـــــيوم لـــلاذان

ثم هذه الصورة الجميلة التي يرسمها الشريف، اذ قال:

ووقفـت أسـأل بعضـها عـن بعضـها وتجيـــبني عـــبر بغـــير لســـان

عبر كيرة ترد على تساؤلاته ولكن بغير لسان انها اثار الديار التي تحكي ما فعل بها الزمان وصروفه إذ شبه عبر الزمان بالإنسان الذي يجيب على التساؤل ولكنه لا يجيب بلسان ناطق وإنما بوسائل أخرى فالآثار الباقية من الديار بعد البلى والدمار تلك التي تحولت الى مرابع للغزلان البرية بعد أن كانت مرابع للنساء الجميلات هي التي كانت تجيبه وهذه الصورة الاستعارية تحمل دلالة كبيرة إذ إنها تؤكد إن الآثار أبقى من الإنسان لأن الإنسان زائل وهي أبقى منه في هذه الحياة.يقول بعد ذلك كله وهو ينبئ عن سطوة الزمان وأدواته التدميرية التي أحالت الحركة والحياة في هذه المنازل الى صمت وأفول إذ يقول:

نعـــــق الزمـــــان بجمعهـــــم .... البيت

إن كلمة (نعق) وما تحمل من دلالة كبيرة تنبئ بنعيق الغراب الذي ينبئ عن الرحيل والفراق والهجر لقد تحول الزمان الى غراب ناعق فاذن برحيل أهل تلك الديار ثم يتحول هذا الزمان في صورة أخرى الى مارد جبار يطلق زفيره فتتفرق الأشياء من أمامهم.

زفـــر الزمـــان بجمعهـــم فتفرقـــوا وجلـــوا عـــن الأوطـــار والأوطـــان[١٨]

نلاحظ كيف يطوع الشريف اللغة فيختار منها ما يخدم معناه إذ يختار تلك الكلمات ذات الطاقة التعبيرية العالية من نحو قوله ((وجلوا عن الأوطار والأوطان)) فكلمة (جلوا) تعني الطريد الذي يرغم على ترك الحي بعد الإساءة الى بعض أهله هذه الدلالات تؤكد حكمة مفادها: إن هذه الحياة الدنيوية تفضي بالإنسان دائماً الى الزوال وعدم الثبات وعدم القدرة على تحدي الزمن بل عدم القدرة على الدفاع و الصمود أمام جبروته.

ويبقى الطلل وآثار الديار هاجساً يؤرق الإنسان ويثير الرعب في نفسه فهو مشهد من المشاهد الشاخصة التي تذكر الإنسان بالأفول والموت ولاسيما ان الإنسان يعرف نهايته المحتومة ولذا فللطلل تأثير واضح في ممارسات الشاعر وتجربته بالحياة وله ارتباط عميق لما يتركه من معطيات وقيم روحية ومادية تكون منفذا الى تجربة شعرية تغري لتخليدها لأنها تؤكد بالانتماء الى الطلل بنفس تنزع الى الاستقرار[١٩] فالمواقع مهما كانت أثرية أو طللية – ولاسيما التي يكون للإنسان معها ذكريات – تكون ملازمة له ملازمة الظل[٢٠].

ونلاحظ كذلك هذا التشاكل بين الأوطار والأوطان فهم لم يتركوا أوطانهم بل تركوا أوطارهم التي اعتادوا عليها في تلك الديار أيضاً.

إن مما يؤكد صورة الأفول والدمار في تلك الأماكن بفعل عاديات الزمان

هو حرص الشريف على استعمال مفردات ذات دلالة تعبيرية عالية تؤكد تلك المعاني كاستعماله كلمة (البلى) في أكثر من موضوع وهي تعني (الموت) في بعض ما تعنيه كقوله في القصيدة نفسها[٢١].

بـــالى المعـــالم أطرقـــت شـــرفاته اطـــراق منجـــذب القرينـــة عـــان

وقوله[٢٢] امقاصر الغزلان غيرك البلى...

وقوله في قصيدة أخرى[٢٣].

فواهـا مـن الربـع الـذي غـير البلـى واهـا علـى القـوم الـذين تفرقـوا

ومنها قوله في قصيدة أخرى يتحدث فيها عن (دمن) بذي (سلم وضال) (من الوافر) يقول[٢٤].

لمـــن دمـــن بـــذي ســـلم وضـــال بلـــين وكيـــف بالـــدمن البـــوالي

وقفـــت بهـــن لا اصـــغي لـــداع ولا أرجـــو جوابـــاً عـــن ســـؤالي

أيـــا دار الأولى درجـــت عليهـــا حوايـــا المـــزن والحجـــج الخـــوالي

فـــاي حيـــا بأرضـــك للغـــوادي واي بلـــى بربعـــك لليـــالي

ومن ذلك أبياته المشهورة[٢٥].

ولقـــد مـــررت علـــى ديـــارهم وطلولهـــا بيـــد البلـــى نهـــب

ومما يزيد المعنى توكيداً اسناده (النهب) (للبلى)

ومن تلك الأدوات التعبيرية التي أكدت فاعلية الزمان وقوته التدميرية استعمال كلمة (الردى) في قوله في القصيدة نفسها[٢٦].

وملاعـب الانـس الجميـع طـوى الـردى منـــهم فصـــرت ملاعـــب الجنـــان

إن حديث الشريف عن هذه الأماكن وآثارها الباقية واندثار أهلها واقتران هذا الحديث بالمفردات التي تعني الموت والفناء إنما يؤول إلى دلالة بل حكمة مفادها إن هذه الحياة الدنيوية التي تؤدي بالكائنات والجمادات إلى الأفول والاندثار تشير الى ضعف الإنسان أمام تحديات الطبيعة والزمان وإن هذه الآثار والأطلال قد تكون أقدر منا على الثبات والصمود كما ان الإنسان أضعف من كثير من الكائنات على استمرار في هذه الحياة يقول[٢٧].

وأنعـــم منـــا في الحيـــاة بهـــائم وأثبـــت منـــا في التـــراب جبـــال

وقد يكون السبب وراء تجديد الشعراء لهذه المواضع (تخوفهم أن تمحوها عوادي الطبيعة والشعراء يودون أن تبقى وان في تصورهم فيشدونها بشعر خالد لا تقوى الطبيعة على محوه بل هو يحدد مكانها ومواقعها[٢٨].

ومن الدلالات الأخرى التي تحملها الأطلال وآثار الديار انها تتمثل في صورة غياب الإنسان واختفائه وصمته بعد أن كانت تلك الأطلال عالية الأصوات بوجود أهلها المعمرين والبانين لمظاهر ذلك الوجود فالآن أصبحت تلك الأطلال خرساء صماء بعد أن غاب أهلها المعمرون لها وهي أيضاً تنم على العلاقة الوطيدة بين الإنسان وهذه الأماكن وقد تحولت إلى عبر تنبئ الإنسان عن حالة التحول والتبدل وعدم الثبات على نسق أو نظام معين فهي على الرغم من أنها لا تتكلم لكنها تفصح عن المراد وأما الإنسان ولاسيما الواعي كالشعراء فيعلم ذلك.

المكان الأليف والمكان المعادي:

المكان الأليف أو المنشود مكان قد يكون مكاناً واقعياً يحتل حيزاً من الأرض ذا أبعاد مادية مرسومة وقد يكون في مخيلة الشاعر يرسمه في تطلعاته وآماله وأمانيه يفر إليه من ضيق المحسوسات وعنتها وما تضعه من عراقيل

وصعاب في طريق الإنسان لذا فإن الشاعر يرسم في مخيلته مكاناً أو أماكن يفر إليها في ساعات العزلة و الانفراد يمرح فيها ويشم عذب النسيم يرسم فيها مدناً يوتوبية جميلة يقضي بها لباناته.

أماكن الشريف الرضي الذي كثر حديثه عنها وذكرها في شعره ولاسيما في حجازياته هي أماكن واقعية منشودة لم يكن الشريف يعيش في تلك الأماكن كما يعيش الإنسان في بيته ومدينته وإنما كان الشريف يعيش ذكريات في أيام معدودات كان يقضيها في مواسم الحج التي كان يقودها بنفسه الى الحجاز ماراً بتلك الأماكن الجميلة التي شكلت سيلاً من الذكريات في شعره فكان يحن اليها دائماً بل كان مرتبطاً بها ارتباطا يمكن أن يقال عنه أنه (ارتباط مشيمي) كارتباط الطفل بمشيمة أمه ذلك ان هذه الأماكن الكثيرة التي تشكل خارطة واسعة في الجزيرة العربية ومدنها كالحجاز ونجد ومكة والمدينة وغيرها تمثل الصورة البدائية النقية للإنسان فهي الموطن الذي انطلق منه الإنسان العربي الأول وهو موطن الآباء والأجداد بالنسبة الى الشريف الرضي وهي موطن الأديان ومنبتها الأول ولاسيما الإسلام الذي يمثل مرتكزاً فكرياً وثقافياً واجتماعياً بالنسبة إليه والى غيره ونحن نعلم أن الشريف شاعر مبدع فلذا هو كغيره من المبدعين قد يكون المكان أو الأماكن الأليفة المحببة لهم يمثل حالة من الالتحام و الانتماء إذ تصل العلاقة بينهما الى حد الامتلاك وأحياناً يمثل المكان للشاعر امتلاكاً روحياً وجسدياً فلا يعود المكان وعاءً خارجياً يضم جسده فحسب بل يتحول الى وعاء داخلي يحتضن روح الشاعر فيلتحم أحدهما بالآخر ولا غرابة أن يتكرر في هذه المواضع انبثاق صورة الرضيع والثدي التي تجسد انقى أشكال الحب والالتحام وأطهرها[٢٩] ولكننا إذا سألنا عن المسوغات التي سوغت للشريف ذلك كله فجعلته يحن دائماً على تلك المدن والبقاع ويكثر منها في شعره بل لقد أطرت هذه الأماكن التجربة الشعرية لدى

الشريف في قصائد هي الأروع في شعره حتى غدت مناراً[٣٠] سلكه غيره من الشعراء بعده اعجاباً منهم بهذا الأثر الخالد.

لا يحتاج الجواب عن هذا السؤال الى كد ذهن بل ان هناك عوامل تدلك على ذلك منها ديوان الشاعر فقد عاش الشريف في الحقبة بين ٣٥٩ - ٤٠٦هـ وهذه المدة تقع في أوج عصر الحكم البويهي لبغداد عاصمة الدولة الإسلامية وتقلدوا مقاليد الحكم ولم يبق للخليفة العباسي إلا السلطة الدينية وإلا ذكر اسمه في خطب المساجد وربما قاسموه هذه السلطة فضلاً عما فعله البويهيون الفرس المحتلون من أعمال شنيعة في بغداد تجاه حكامها وأهلها مما جعل الوضع يسوء يوماً بعد يوم.

وكان الشريف الرضي عربياً أصلاً ومسلماً مؤمناً بعقيدته ودينه وهو الذي تربى بين أحضان الدين وشيوخ العقيدة كالشيخ المفيد على سبيل المثال لقد ساءه هذا ولم يرق له ما يراه من ممارسات المحتلين وسوء فعالهم فضلاً عما رآه بنفسه وما حدث له في حادثة القبض على الخليفة الطابع لله وهذا ليس بخاف فقد نجا الرضى باعجوبة من أيدي المهاجمين وفي تلك الحادثة قال (من البسيط)[٣١]:

هيهات بابل من نجد لقد بعدت ... على المطي مرامي ذلك البين

ومن نجائي يوم الدار حين هوى ... غيري ولم اخل من حزم ينجيني

مرقت منها مروق النجم منكدرا ... وقد تلاقت مصاريع الردى دوني

هيهات اغتر بالسلطان ثانية ... قد ضل ولاج أبواب السلاطين

ومن ذلك ما حدث له مع الخليفة القادر بالله وفي ذلك قال (من مجزوء الكامل)[٣٢].

عطفـــا أمـــير المـــؤمنين فإننـــا ... في دوحـــة العليـــاء لا نفتـــرق

مـــا بيننـــا يـــوم الفخـــار تفـــاوت ... أبـــداً كلانـــا في المعـــالي معـــرق

الا الخلافـــة ميزتـــك فـــإنني ... أنـــا عاطـــل منـــها وأنـــت مطـــوق

وقد تحولت بغداد في ظل هذه الأوضاع الرديئة الى مكان غير أليف يقض مضجع الشريف مما جعله يفتش عن منافذ أخرى ينشد فيها الطمأنينة والأمان وقد عبر الشريف الرضي عن ذلك في مواضع كثيرة في شعره منها قوله (من الطويل)[٣٣].

الا غنيـــاني بالـــديار فـــإنني ... أحـــب زروادا مـــا أقـــام ثراهـــا[٣٤]

هـــي الـــدار لا دار بانكنـــاف بابـــل ... جـــدير بضـــيم النـــازلين حماهـــا[٣٥]

منـــازل منـــون علـــى الركـــب زادهـــا ... نـــزور علـــى كـــد المطـــالي جـــداها[٣٦]

فالمأوى والسكن عنده ليس ببغداد وإنما موضع من أماكن الجزيرة لقد أصبحت بغداد تؤرقه حتى صار نومه ينفر كأن مقلته تشرج أجفانها على ضمد فليس هناك قرار ولا ارتياح إذ قال[٣٧]:

ليلـــي ببغـــداد لا أقـــر بـــه ... كـــأنني فيـــه نـــاظر الرمـــد

ينفـــر نـــومي كـــان مقلتـــه ... تشـــرج أجفانهـــا علـــى ضـــمد

لقد أصبحت بغداد مكاناً غير أليف بالنسبة الى الشاعر إذ فقد فيها الأمان والاستقرار وفقد الأمل والطموح حتى غدت تؤرقه وتسلبه نومه وتحيله الى دنف مضن وهو بعد ذلك يحاول الانسلاخ أو الانسحاب من هذا المكان ومما يزيد من حاله الانسلاخ أو الاقتلاع من المكان (ما يحدث من صدام بين الأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية الساندة والتكوين الفكري والوجداني والموقف الاجتماعي للفرد المبدع من ناحية ثانية ليس بوصفه ذاتاً

فردياً ولكن بوصفه ذاتاً اجتماعية[٣٨] وكل ذلك حاضر في شخصية الشريف الرضي فالهدف السياسي والطموح والثقافة الدينية والاجتماعية والتكوين الفكري والوجداني والموقف الاجتماعي كلها مفردات تشكل أضداداً للوضع السياسي و الاجتماعي والثقافي الذي يعيشه الشريف الرضي في بغداد ولذا أصبحت بغداد تحمل دلالة معادية للشعر فهي ليست بغداد المدينة وعاصمة الدولة وإنما هي طبيعة الحياة بأبعادها المختلفة التي شكلت العنصر العدائي للشاعر ولذلك امتلات نفس الشريف بالثورة والتمرد على هذا المكان مما جعله يصرح بذلك متسائلا بطريقة لافتة للنظر إذ صار يكرر هذا التساؤل بطريقة لا شعورية راسماً في خياله صورة لا يتمناها في نفسه هي في حقيقتها صورة تحمل ملامح الخراب والدمار والحرب قال (من السريع)[٣٩]:

مـــتى أرى الـــزوراء مرتجـــة ... تمطـر بـالبيض الضـبى أو تـراح

يصـيح فيهـا المـوت عـن السـن ... مـن العـوالي والمواضـي فصـاح

مـــتى أرى الأرض وقـــد زلزلـــت ... بعـــارض أغـــبر دامـــي النـــواح

مـــتى أرى النـــاس وقـــد أصـــبحوا ... ســـيل دم يغلـــب ســـيل البطـــاح

إن هذه الصورة التي مثلتها بغداد المكان المادي غير الأليف جعلت الشاعر يمد بصره عبر آفاق أخرى رأى فيها المنفذ والخلاص من شرنقة الأحزان والاتراح التي أحاطت به لقد رأى بغداد مستباحة سلبية لا تحتضن إباءه وطموحه قال (من المتقارب)[٤٠].

ومـــا العـــيش عنـــدي إلا الإبـــاء ... وبعـــدي عـــن المـــنزل المســـتباح

أحـــــب الخيـــــام وســـــكانها ... واحســـــد كـــــل بعيـــــد المـــــراح

وأغـــيظ كـــل فـــتى لا يـــزال ... عبـــأ علـــى الزاغيـــات القمـــاح[٤١]

فالمكان هنا مثل لدى الشاعر حالة من مشاعر الخوف والقلق لما انطوى عليه من السلبية وانعدام الألفة وهو مكان يقيم فيه مرغماً مجاوراً خطر الموت الذي يكمن فيه لسبب أو لآخر(٤٢).

الموقف من المكان (المدينة):

إن هذا الموفق السلبي من المدينة عند الشعراء بدأ من عصر الإسلام ووصولاً الى عصرنا الحديث إنما يعبر عن رفض عنيف لها وموقف سلبي من المكان و الحضارة الجديدة والحياة المدنية التي أخذ المتبدون من ذوي المناشئ الصحراوية يشعرون بانها قد انتزعتهم من رحم عالمهم الأول (الصحراء) وهكذا برزت ظاهرة النفور من المدينة والحنين الى الصحراء(٤٣).

فالمكان المعادي هو نموذج من المكان غير المرغوب بالنسبة الى الشاعر لا يود العيش فيه بل هو حالة انتماء قلقة تكون مصدراً للخوف والقلق والضجر يحاول الإنسان الهروب منها لأنه يشعر شعوراً نفسياً أكيداً انه ينتمي في هذا المكان الى مجتمع لا يود الانتماء إليه ولذا فهو يفتش عن بديل ملائم وعلى هذا الأساس فإن العلاقة بين المكان المعادي والمكان الأليف هي علاقة سلبية وليست علاقة اتحاد أو انسجام وهنا يكون المكان الأليف بديلاً عن المكان المعادي.

لم تكن أماكن الرضي الأليفة أماكن يوتوبية على غرار جمهورية أفلاطون أو مدينة الفارابي الفاضلة أو هي مدن خيالية وإنما هي أماكن واقعية موضوعية شكلت متنفساً مهما لدى الشريف الرضي ومنفذاً كبيراً لطموحاته وتطلعاته وآماله وهي دائماً تشكل بديلاً عن بغداد أو بابل أو العراق ولم يكن الشريف يتحدث عن هذه المدن التي شكلت أماكنه الأليفة لم يتحدث عن جمالها أو مواقعها أو طبيعتها الاجتماعية وغير ذلك إنما كان يتحدث عنها ملجأ وملاذاً وموطناً يفر إليه هارباً من مضايقات كانت تؤذيه فقال (من الوافر)(٤٤).

ألا هـــل أطـــرق الســـمرات يومـــاً بـــرئ القلـــب مـــن عنـــت الهمـــوم

والصـــق بالنقـــا كبـــدي ويهفـــــو الي مـــن في النقـــا ولـــع النســـيم

أرى الأيـــــام عاديـــــة علينـــــا ببـــيض مـــن نوائبـــها وشـــيم

يضـــــل نفوســـــنا داء عقـــــام فيســـــلمنا الى أرض عقـــــيم

والسمرات وهي شجرات ونقا الرمل وهو الكثيب وهما ذوات صحراوية يرى فيها الشاعر انها البديل من مكان يملأ قلبه بالهموم وعنتها عن مكان أصبح عقيماً لا فائدة فيه.

وازاء هذا البرم ببغداد وصورتها العقيمة في ظل التسلط الأجنبي تكون نجد ومدنها بديلاً عن بغداد لأنها مواطن الجزيرة العربية الأولى ولم يكن الشريف وقتئذ مهيأ للرحيل صوب نجد وقراها وجبالها وهضابها وشد الرحال لها بل تراه يخاطب ركباً ذاهبين الى تلك الديار فقال:

(من الطويل)[٤٥]:

أقـــول لركـــب رائحـــين لعلكـــم تحلـون مـن بعـدي العقيـق اليمانيـا

خذوا نظرةً مـني فلاقـوا بهـا الحمـي ونجـــدا وكثبـــان اللـــوى والمطاليـــا

ومـــروا علـــى أبيـــات حـــي برامـــة فقولـــوا لـــديع يبتغـــي اليـــوم راقيـــا

عـــدمت دوائـــي بـــالعراق فربمـــا وجـــدت طبيبـــا لي بنجـــد مـــداويا

إنها صورة من صور اليأس القاتل حين يفقد شفاءه في العراق يفر الى نجد ليجد فيها شفاء نفسه وازاء هذا اليأس يتمنى الشريف أماكن كثيرة يعددها في نصه السابق لعلها تنقذه من مأزق يمر به لقد أصبحت بغداد دار ذل مقابل دار هي البيد وما فيها من مواطن نجدية وحجازية تلك البيد التي كان دائماً - يمد الطرف اليها متعلقا بها لأنها تمثل حالة الوئام والصفاء لدى الشاعر قال (من

البسيط)[٤٦].

الى كـــم الطـــرف بالبيـــداء معقـــود وكـــم تشـــتكي ســـراي الضـــمر القـــود

يـــا دار ذل لمـــن فارقـــت قعدتـــه والعـــز أولى بمـــن علقـــت يـــا بيـــد

ولذا تمثل بغداد عالم المدينة المتحضرة آنذاك بما فيها من تطور عمراني وبما فيها من علاقات إنسانية جديدة متحجرة وضيقة تمثل غربة شديدة مقارنة بحالة التصافي والوئام والعلاقات المفتوحة في عالم الريف والصحراء بل أصبحت المدينة تضغط باستمرار على وجدان الشاعر وضميره ومن ثم فهي تمثل صورة من صور القهر والبرم بالحضارة الجديدة ومظاهرها اللاهية ولذا ((فان روح التذمر من المدينة كانت تمثل لدى الشاعر الى حد كبير ردة فعل سياسية واجتماعية ضد ما ترمز اليه المدينة على هذه المستويات[٤٧] وعلى هذا الأساس يمكن القول إن إعجاب الشاعر بمواطن الجزيرة كنجد ومنى والخيف وغيرها لم يكن لمجرد اعجاب بها وإنما كان يدل دلالة تشاؤميه أصيلة من المدينة المتحضرة وربما كانت هذه الأماكن مواطن احلام التمرد والاتساع والانطلاق...[٤٨].

وبعد هذا الاستعراض يحق القول إن شاعرنا الشريف الرضي كان جذرا أصيلاً في هذا المجال وتراثاً عميقاً ينتمي اليه كثير من شعراء العصر الحديث الذين دبجوا قصائد في مجال التشاؤم من المدينة المتحضرة ورفضها والعودة الى الريف وفضائه المفتوح من أمثال: السياب وادونيس والبياتي وغيرهم.

إذن مثلت هذه الأماكن وغيرها من أماكن الجزيرة العربية مهرباً من مكان ضاقت به نفسه فلم تكن بغداد بلهوها وحضارتها وزخرفها تعجب الشريف ولم يكن حكامها بجبروتهم وعنفهم يطمئن اليهم ولذا كانت هذه الأماكن مهرباً ومتنفساً من مكان يشكل خطراً داهماً أمام الشريف.

المكان والتجربة العاطفية:

ومن الدلالات الأخرى التي مثلتها أماكن الجزيرة المتنوعة انها كانت أماكن لاحتضان التجربة العاطفية التي كانت تطفح بها نفس الشريف فكانت هذه الأماكن مسرحاً للذكريات الخالدة التي عاشها في أيام سفره في مواكب الحج حين كان يقود تلك المواكب بما فيها من نساء جميلات كن يتصيدن له ويطرزن معه أحاديث الهوى والغرام وهو بين تدينه وحبه لا يملك إلا أن يدبج هذه الذكريات وهذه الأحاديث في قصائد خالدة مع الزمن وليثبت فيها براءته وصموده أمام سلطان الهوى فكانت تلك الأماكن منبع الذكريات الجميلة والأحاديث الرائعة التي تؤسر القلب وهي كثيرة في شعر الشريف من ذلك قوله (من البسيط)[٤٩]:

يـا قلـب مـا أنـت مـن نجـد وسـاكنه ... خلفـت نجـدا وراء المـدلج السـاري

راحـت نـوازع مـن قلـبي تتبعـه ... علـى بقايـا لبانـات وأوطـار

اهفـوا الى الركـب تعلـوني ركائبـهم ... مـن الحمـى في اسـيحاق واطمـار

تضـوع أرواح نجـد مـن ثيابهـم ... عنـد الـنزول لقـرب العهـد بالـدار

يـا راكبـان قفـا لي واقضـيا وطـري ... وخـبراني عـن نجـد بأخـبار

هـل رَوّضـت قاعـة الوعسـاء أم مطـرت ... خميلـة الطلـح ذات البـان والـقار

أم هـل أبيـت ودار عنـد كاظمـة ... داري وسمـار ذاك الحـي سمـاري

لقد أصبحت نجد مكاناً أثيراً عند الشاعر حتى راح يسائل القادمين من نجد بعد فراقها يسائلهم وهو يكرر ذكر نجد لدرجة انه راح يشم رائحتها في أثواب القادمين منها ويطلب منهم أن يحدثوه عنها وعن أماكن أخرى متمنياً أن يبيت بها ويقضي بعض أوطاره هناك.

لم تكن نجد مكاناً أليفاً بالنسبة للشاعر وحسب وإنما هي مكان يحمل معاني روحية ودلالات ثاوية في ذاكرة الشاعر وربما لا تكون نجد ذاك المكان المؤطر بأبعاد مرسومة على الأرض وإنما هي رمز لمعان كثيرة تزدحم في مخيلة الشاعر لما لهذا المكان من دلالة كثيرة في نفس الشاعر فهي ذات دلالة دينية واجتماعية وتراثية وحضارية لذا نراه يكثر من ذكر (نجد) لذلك فإن للمكان الفعلي حس أصيل وعميق في الوجدان البشري ولاسيما إذا كان المكان هو وطن الألفة والمحبة والانتماء الذي يمثل حالة الارتباط البدائي(٥٠).

فضلاً عن ذلك فإن الجزيرة العربية وأماكنها المختلفة التي يكثر الشاعر من ذكرها يمكن عدها مرحلة إبداع حضاري أضاف الى التراث الإنساني شيئاً كثيراً فهي أحد مكونات البيئة اللاشعورية الثانوية في العقل واننا لنجد خصوصية معينة ولذا اطلق عليها الشعراء تسميات منها (دار الهوى) و (معاهد الأصحاب)(٥١).

إن إلحاح الشريف على ذكر أماكن في الحجاز والجزيرة إنما هو تعبير عن حال الضياع والفقد التي يعيشها الشاعر في موطنه (بغداد) وهذا من العوامل التي تشحذ النظم على تلك الأماكن المنشودة ويغذي الحنين اليها قال (من الطويل)(٥٢).

خذي نفسي يا ريح من جانب الحمي ... فلاقي بها ليلا نسيم ربى نجد

فإن بذاك الحي الفا عهدته ... وبالرغم مني أن يطول به عهدي

ولولا تداوي القلب من ألم الجوى ... بذكر تلاقينا قضيت من الوجد

وقوله (من الطويل أيضاً)(٥٣):

فؤادي بنجد والفتى حيث قلبه ... أسير - وما نجد الىّ حبيب

ومـــالي فيـــه صـــبوة غـــير أنـــني خلعـــت ثيـــابي فيـــه وهـــو رطيـــب

لم تكن نجد هي المكان الوحيد الذي يحمل دلالات بالنسبة للشاعر بل هناك أماكن تحتل تلك المكانة فضلاً عن دلالاتها العاطفية والنفسية منها على سبيل المثال لا الحصر (منى) (وجزع السمرات) (وجمع) والخيف من نحو قوله (من مجزوء الكامل)[٥٤]:

مـــن معيـــد لي أيـــا (م) مـــي بجـــزع الســـمرات

وليـــــالي بجمـــــع ومـــــنى والجمـــــرات

فســـقي بطـــن مـــنى والـــــ خيـــف صـــوب الغاديـــات

ولمنى دلالة أخرى عند الشريف فهي المكان الذي ضم الشباب وعلامته وفيها دفن لمته السوداء التي تمثل عنده رمز الفتوة ولا ريب ففي (منى) - وهي المكان الذي ينفر الحجاج منه الى مكة يحلقون شعورهم ويدفنونها فالشريف يتذكر هذا ويتذكر تلك الدلالة الدينية إذ قال (من الكامل)[٥٥]:

لا يبعـــدن الله بـــرد شبيبـــــة القيتـه بمـنى ورحـت سليبـــــا

شـعر صـحبت بـه الشـباب غرانقـا والعـيش مخضـر الجنـاب رطيـــا

بعـــد الـــثلاثين انقـــراض شـــبيبة عجبا أميم لقـد رأيـت عجيبـــا

قـــد كـــان لي قططـــا يـــزين لمـــنى شـــروى الســـنان يـــزين الانبوبـــا

فـــاليوم أطلـــب الهـــوى متكلفـــا حصـــراً والقـــي الغانيـــات مريبـــا

أمـــا بكيـــت علـــى الشـــباب فإنـــه قـــد كـــان عهـــدي بالشـــباب قريبـــا

لـــو كـــان يرجـــع ميـــت بتفجـــــع وجـــوي شـــققت علـــى الشـــباب جيوبـــا

ولـــئن حننـــت الى مـــنى مـــن بعـــدها فلقد دفنت بها الغـداة حبيـــــبا

ولنجد مثل هذه الأدلة عنده كما في قوله (من الطويل)[٥٦]:

فـؤادي بنجـد والفـتى حيـث قلبـه اســير ومــا نجــد الى حبيــــب

ومـالي فيــه صــبوة غــير انــــني خلعــت شــبابي فيــه وهــو رطيــب

ومن ذلك قوله الذي يذكر فيه أماكن عدة (من الطويل)[٥٧]:

ألا يا غـزال الرمـل مـن بطـن وجـرة اللواجــد الضــمان منــك شــروع؟

ألا هل الى ظـل الأثيـل تخلــــص وهــل لثنيــات الغــوير طــــلوع

وهـل بليـت خـيم علـى أيمـن الحمـى وزالــت لنــا بــالا بــرقين ربــوع

ومن ذلك قوله[٥٨]:

الا غنيــــاني بالــــديار فإننــــي أحــب زرودا مــا اقلــم ثراهــا

وبــين النقــا والأنعمــين محلــــة حبيــبٌ لقلــبي قاعهــا ورباهــا

المكان وطيف الخيال:

كان المكان ولا يزال مسرحا أميناً يحتضن التجارب الشعرية على اختلافها عند الشعراء المبدعين ومن تلك التجارب تجربة (طيف الخيال) هذه التجربة العاطفية التي كثر ورودها عند الشريف الرضي وشعراء آخرين قبله ومنهم البحتري فهي تجربة تمثل جوانب عاطفية ونفسية واجتماعية وربما مثلت جانباً سياسياً أحياناً ولا ريب فإن أحداث هذه التجربة الإنسانية والوجدانية تجري في غير عالم الواقع وفي أماكن محدودة وان كانت هذه الأحداث خيالية إلا أن تنفيذها يجري في الحلم على مسرح معين وفي مكان معين فاللقاء بين المحبين والحديث والشكوى من الألم والشوق والصبابة يحتاج الى مكان يحتضن تلك التجارب ولا بد أن يكون هذا المكان أميناً وأليفاً ومحبباً لذا تجري في هذه

الأماكن التجارب التي تمثل دلالات عميقة في نفس الشاعر عندما تكون أماكن معينة ينشر فيها مواجده وأحزانه ولو اعجه شاكياً ومتبرماً ومحتمياً غير آبه برقابة الوشاة والعذال واللائمين على الهوى بل ان هذه الأماكن التي يطرقها طيف الخيال تمثل منافذ يبوح فيها الشاعر بما لا يستطيع البوح به في عالم الواقع لأسباب واعتبارات تتعلق بالشاعر أو بالمجتمع أو غير ذلك كل ذلك تجده في شعر الشريف من ذلك قوله[٥٩]:

إن طيف الخيال زار طروقا ... والمطايا بين القنان وشعب

فوق أكوارهن انضاء شوق ... طرقوا بالغرام دون الركب

كلما أنت المطي من الإعياء ... أنوا من الجوى والكرب

زارني واصلا على غير وعد ... وانثني هاجرا على غير ذنب

بتّ الهو بناعم الجيد غض ... ناقعا للغليل من غير شرب

فما بين القنان وشعب مكان آمن وأليف استضاف تلك المطايا التي تحمل فوق أكوارها انضاء شوق وقد تحققت زيارة ولقاء وحديث وغرام ووصال وقد نقع الغليل من غير شرب. ولم يكن هناك رقيب أو لائم حين بات الشريف يلهو بجيد ناعم وفم بارد المحاجة عذب وقوله أيضاً[٦٠]:

يا حبذا منك خيال سرى ... فدله الشوق على مضجعي

أنيّ تسرى من عقيق الحمى ... منازل الحي على لعلع

بات يعاطيني جني ظلمه ... وبت ظمان ولم انقع

معانقا كان عناقي له ... وراء أحشائي والاظلع

عاقرني يشرب من مهجتي ... رياً ويسقينيَ من أدمع

وهنا يذكر (عقيق الحمى) الذي سرى منه خيال الحبيبة معانقاً له عناقاً لم يرتوِ منه ولم يرو ظمأه ولكنه قد حقق وصالاً بعد هجر.

ومما يلاحظ على تجربة الشريف في طيف الخيال ان طيف الخيال عنده مرتبط دائماً بالمكان مما يؤكد الدلالة المكانية بوصفها موضعا أميناً يحتضن هذه التجربة وكذلك يلاحظ ان أماكن الشريف التي تحتضن تجربة طيف الخيال انها أماكن واقعية محدودة ذات وجود على الأرض وليست من صنع الخيال.

فمن ذلك قوله (من الطويل)[٦١]:

امنك الخيال الطارقي بعد هجعة ... يعاطي جوى الظمان متسما بردا

دنا من أعالي الرقمتين وما دنا ... وصد وقد ولى الظلام وما صدا

ومن عجب ري وما نقع الصدى ... وعدى له منا علي وما اعتدا

ومن ذلك قوله (من الكامل)[٦٢]:

طرق الخيال ببطن وجرة بعدما ... زعم العواذل انه لا يطرق

أني اهتديت وما اهتديت وبيننا ... سور علي من الطعان وخندق

(فبطن وجرة) مكان أمين على الرغم من العواذل وما نصبوه من سور وخندق من الطعان.

نتائج البحث:ـ

توصل البحث الى النتائج الآتية:

١- إن الأماكن التي ذكرها الشريف في شعره هي أماكن واقعية ممثلة في بعض الأطلال ذات الوجود الفعلي وأماكن أخرى هي مدن وهضاب وجبال وقرى وأحياء وغيرها.

٢- ليست هناك أماكن خيالية من صنع خيال الشاعر.

٣- هناك أماكن أليفة وأخرى أماكن معادية مثلت الأماكن الأليفة مواطن يفر إليها الشريف أو كان يتمنى الفرار إليها عندما يشتد عليه العنف السياسي ومعنى هذا ان هناك ارتباطاً وثيقاً بين الوضع السياسي الذي يعيشه الشريف ودلالة الأماكن التي ذكرها في شعره

٤- بعض هذه الأمان كانت مجالاً لاحتضان التجربة العاطفية والذكريات الجميلة التي كان يعيشها الشريف في أيام حجه.

٥- هناك أماكن ذات دلالات تاريخية ودينية واجتماعية إذ مثل بعض هذه الاماكن الارتباط الوثيق بين الشريف والمدلول الديني والتاريخي لها ولاسيما بعض أماكن الجزيرة العربية

٦- وهناك أماكن كانت مسرحاً لتجاربه العاطفية ممثلة بطيف الخيال الذي كان يطرق من تلك الأماكن لتكون هناك اللقاءات البريئة بعيدا عن أعين الحساد والمراقبين.

Abstract

The old Arabic poetry has not been studied in detail.

According to the modern ways of study saving some limited Studies. The old poetic types contain a large quantity of ideas Meanings and far- reaching thoughts. This shows that the old Arabic poets have poetic، dreamy and delicate feelings. thus،it is important to study old poetry in the light of modern studies، in a way not canceling its identity but confirming it. Hence، the researcher attempts to study the place phenomenon in Al-shareef Al- Radhi،s poetry.

The paper consists f and introduction about place and its studies. then، the paper deals with the nature of place and its types in Al- shareef،s poetry later، the study tackles the remains

place and its significance; the hostile place and the friendly one and their significances. finally، the researcher studies other significances of place as the emotional and religious ones، and the significance of vision. the paper ends with a summary of the most important conclusions.

هوامش البحث

(١) سورة طه /٥٥

(٢) ينظر: اسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث، ص ١٢

(٣) من هذه الدراسات الناقد ياسين النصير وهي:

أ - الرواية والمكان ١٩٨٠

ب - دلالة المكان في قصص الاطفال ١٩٨٠

ج - اشكالية المكان في النص الادبي ١٩٨٦

د - ودراسة الدكتور علي كاطع (المكان في ادب عبد الرحمن منيف الروائي) ١٩٩٣ وفي الشعر الحديث دراسة الباحث محمد طالب البجاري الموسومة المكان ودلالته في شعر بدر شاكر السياب ١٩٩٨ ودراسة الباحثة فيحاء عبد الكريم الموسومة الفضاء الشعري عند بشرى البستاني /٢٠٠٥

(٤) الشعر والشعراء:١/٧٤- ٧٥

(٥) ينظر الشريف الرضي دراسات في ذاكره الالفية، ص ٣٠ – ٣١

(٦) نفسه:٢٦ وما بعدها

(٧) ينظر البناء الفني في شعر ابن الرومي.ص٢٠٦

(٨)العصر العباسي الاول، ص ١٦٣

(٩) ينظر: الشعر والشعراء: ١ /٧٤ -٧٥

(١٠) ينظر: مقدمة القصيدة العربية د. حسين عطوان، ص ٢١٦-٢١٩

(١١) ينظر: مجلة الشعر المصرية، ص ٧ عدد ٢ شباط ١٩٦٤

(١٢) من ذلك دعوة ابي نواس واضرابه

(١٣) ديوان الشريف الرضي:٢/ ٨٨٥

(١٤) دير هند: اسم موضع بالحيرة والحيرة موضع قريب من الكوفة

(١٥) ينظر: البنى المولودة للشعر الجاهلي د. كمال ابو ديب، ص ٢١

(١٦) ديوان الشريف الرضي: / ٨٨٧ ولعلع: اسم موضع، وماء واسم جبل ينظر: معجم البلدان، مادة (لعلع).

(١٧) ديوان الشريف الرضي: ٨٨٦
(١٨) نفسه: ٨٨٧
(١٩) الاغراب في الشعر العربي قبل الاسلام د. صاب خليل، ص ٤٧
(٢٠) الشعر والتاريخ د. نوري حمودي القيسي، ص ١٢
(٢١) ديوان الشريف الرضي: ٨٨٦
(٢٢) نفسه:٥٧٣
(٢٣) نفسه:٦٤٧
(٢٤) نفسه: ٦٤٧
(٢٥) نفسه:١٤٥
(٢٦) نفسه:٨٨٦
(٢٧) نفسه:٦٠٨
(٢٨) ينظر:الغزل في الشعر الجاهلي، ص ٣٠١
(٢٩) ينظر: المكان والرواية الابداعية، ص ٤٠
(٣٠) الحجازيات
(٣١) ديوان الشريف الرضي: ٨٦٧
(٣٢) نفسه: ٥٤٤
(٣٣) نفسه: ٩٦١
(٣٤) زرود: اسم موضع
(٣٥) بابل: بغداد
(٣٦) ممنون مقطوع
(٣٧) ديوان الشريف الرضي: ٢٢٣،تشرج: تخيط
(٣٨) جماليات المكان، ص ٧٧
(٣٩) ديوان الشريف الرضي: ١٩٨
(٤٠) نفسه: ١٩٢
(٤١) العبئ: الثقل، الزغبيات: اجمال تمر سريعا
(٤٢) ينظرالملامح الرمزية في الغزل العربي، ص ٢٨٧
(٤٣) ينظر: البناء الفني للرواية العربية في العراق ص ٢٤٢
(٤٤) ديوان الشريف الرضي: ٨٣٧
(٤٥) نفسه ٩٦٧
(٤٦) نفسه: ١ / ٣٠١
(٤٧) ينظر: في حداثه النص الشعري، ص ١٦٥

(٤٨) ينظر: الخيال عند جاستون باشلار، ص ٢١٦
(٤٩) ديوان الشريف الرضي: ٣٩٩
(٥٠) ينظر: جماليات المكان، ص ٧٦ مجلة الاقلام
(٥١) ينظر: دراسات نقدية، ص ٥٢ – ٥٣
(٥٢) ديوان الشريف الرضي:/ ٣٠٠
(٥٣) نفسه: ١٥٠
(٥٤) نفسه: ١٧٠
(٥٥) نفسه ١٤٥
(٥٦) نفسه: ١٥٠
(٥٧) نفسه: ٤٩٩ وينظر: ٩٦٥، ٩٦٢، ٩٦٧
(٥٨) نفسه: ٩٦١
(٥٩) نفسه: ١٣٩
(٦٠) نفسه: ٤٥٣
(٦١) نفسه:٣٠٧ – ٣٠٨
(٦٢) نفسه: ٥٤٢

قائمة المصادر والمراجع

❖ القران الكريم.

١- اسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث، د. ريتا عوض، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٧م

٢- اشكالية المان في النص الادبي، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية بغداد ط١، ١٩٨٦م

٣- الاغتراب في الشعر العربي قبل الاسلام د. صاحب خليل اسماعيل، مركز عبادي للدراسات والنشر – الجمهورية اليمنية، ط١،٢٠٠٠

٤- البنى المولدة لشعر الجاهلي د. كمال ابو ديب، الموسوعة الصغيرة دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٨م.

٥- الغزل في الشعر الجاهلي د. احمد الحوفي، دار القلم، بيروت، ١٩٦١ م

٦- البناء الفني للرواية العربية في العراق د. شجاع مسلم العاني، رسالة دكتوراه، كلية الاداب _ جامعة بغداد، ١٩٨٧م

٧- جماليات المكان د. اعتدال عثمان، مجلة املاقلام، العدد (٢) دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٦م

٨- نسيب الشريف الرضي، الحجازيات وقصائد اخر، د. عاتكة الخزرجي، دار الجماهير، بغداد ١٩٨٥م

٩- دراسات نقدية في الادب العربي القديم د. محمود عبد الله الجادر دار الحكمة، الموصل ١٩٩٠م

١٠- ديوان الشريف الرضي مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت لبنان، (د.ت)

١١- الشريف الرضي، دراسات في ذكراه الالفية، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٠م

١٢- الشعر والتاريخ د. نوري حمودي القيسي، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٠م

١٣- الشعر والشعراء ابن قتيبة، تحقيق احمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤م

١٤- الرواية والمكان، دراسة في فن الرواية العراقية، ياسين النصير، وزارة الاعلام بغداد، ١٩٨٠م.

١٥- تاريخ الادب العربي، العصر العباسي الاول، د. شوقي ضيق، دار المعارف، مصر (د.ت)

١٦- في حداثة النص الشعري دراسات نقدية، د.علي جعفر العلاق، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد، ١٩٩٠م

١٧- مجلة شعر المصرية، العدد (٢) شباط، ١٩٧٤م

١٨- مقدمة القصيدة العربية د. حسين عطوان، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٠م

١٩- المكان والرواية الابداعية د. نادية غازي العزاوي، مجلة افاق عربية، العدد (٣-٤) ١٩٨٩م

٢٠- الملامح الرمزية في الغزل العربي الى نهاية العصر الاموي د. حسن جبار محمد _ رسالة دكتوراه، كلية الاداب – جامعة بغداد، ١٩٩١م.

٢١- وحدة القصيدة في الشعر العربي، حياة جاسم، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧٢م.